المحاكم المختلطة في مصر

لمحة تاريخية

ومعلومات لم تنشر بعد

هذه لمحة تاريخية مقتبسة من بعض الخطب التي خطبت في ٢٧ شباط ١٩٢٦ في حفلة يوبيل المحاكم المختلطة بالاسكندرية ولا سيما خطبة جابلسليو النقيب ومن النائب العمومي في المحاكم المختلطة تنشرها الجمعية التاريخية بمناسبة الاحتفال بانقضاء خمسين سنة على انشاء هذه الهيأة القضائية التي لم يبق لها مثيل في الدنيا الا في بعض انحاء الصين وقد زالت مثيلاتها الاخرى في البلدان التي قامت فيها

ولا نطيل البحث في البواعث التي بعثت على انشائها في اول الامر فذلك شيء يطول شرحه وبيانه ، وحسبنا ان نقول انه في اثناء حكم المغفور له الخديوي اسماعيل اقدمت الحكومة المصرية ووافقتها الحكومات الاجنبية موافقة تامة على ان تنشئ طرازا من المحاكم القانونية الدولية يغذيها رجال اوربا ويخول سلطة الحكم في القضايا المدنية والتجارية التي يرفعها الاجانب المختلفو الجنسيات بعضهم على بعض والتي تقوم بينهم وبين المصريين أو الحكومة المصرية

وكانت لنوبار باشا يد كبيرة في نجاح هذا المشروع نجاحا افضى الى تحقيقه بعد كفاح نحو ثماني سنوات — اي منذ ما شرع في بذل مساعيه في سنة (١٨٦٧) — يعاني مشقة النضال عن هذا النظام القضائي الجديد ويحمل على عاتقه عبء الدفاع

عنه في عواصم اوربا المختلفة الى ان رضيت اوربا اخيراً بمهارته السياسية ومقدرته على الاقناع وصبره الجميل بتأليف لجنة دولية لهذه الغاية واقرت اللجنة المشروع في النهاية كما سيجي.

وكان للخديوي اسماعيل نصيب غير يسير في ذلك العمل ونجاح المشروع . ولقد ذهب بعض المؤرخين الى ان من جملة البواعث التي بعثت على المشروع ان نوبار باشا كان يقصد ان يتخذه شكيمة لاستبداد ذلك العاهل وتقلبه مع الاهواء فان صح ان نوبار باشا كان يضمر هذا القصد حقيقة فيكون قد افلح كثيراً في اخفاء قصده عن مولاه اذ يظهر الآن من المراسلات التي تبودلت بينهما من سنة (١٨٦٧) الى سنة (١٨٧٣) والتي بقيت محفوظة الى اليوم في قصر عابدين — وقد دارت عليها خطبة المسيو [illegible] النائب العمومي في المحاكم المختلطة — ان اسماعيل باشا كان شديد الاهتمام بالمشروع وانه وهو في مصر كان يدير المفاوضات التي يتولاها وزيره في اوربا وكان يفاوض بنفسه بعض وكلاء الدول الاجنبية في القاهرة وفي الاستانة في اثناء اقامته فيها

ولقد اثار اقتراح انشاء قضاء دولي في مصر ارتياباً ومعارضة في اول الامر في كثير من الدوائر في خارج مصر فانبرى الخديوي ووزيره لازالة هذه الريب والظنون واقناع المعارضين بعدالة مطلبهما

ومما يحسن ذكره ان المراسلات التي ظهرت الان لاول مرة تميط اللثام عن هذه الحقيقة المبهمة وهي ان بث الدعوة (البروباغندا) بطريق النشر كان امراً معروفاً في ذلك الوقت فقد استعين بقلم ادمون آبوت كبير الخيال فولتير وكان مشهوراً بانه من كبار الكتاب في مقابل ٢٥٠٠٠ فرنك وظهرت على صفحات مجلة «العالمين» في عددها الذي صدر في ١٥ فبراير سنة ١٨٦٩ رواية عن الحياة المصرية اسمها «احمد الفلاح» تضمنت اشارات عديدة وضعت بغاية اللباقة الى مظالم القضاء

القنصلي الذي كان موجوداً اذ ذاك والى النظام الذي كان اسماعيل ونوبار يفكران فيه

وكانت فرنسا أولى الدول التي رغبت في الامر ورفضت الاقتراح لان اللجنة القضائية التي احالته الحكومة الفرنساوية اليها وضعت قيوداً قضت على المبادئ الاساسية فيه ولكن اليأس لم يتطرق الى اسماعيل ونوبار فطلبا تأليف لجنة دولية تعقد في مصر لدرس هذا المشروع وعهد الى نوبار الذي كان لا يزال في باريس في مهمة السعي الى نيل موافقة دول اوربا على ذلك فاعاد الكرة على الحكومة الفرنسوية ولكنها رفضت ثانية

ومن ثم ذهب نوبار الى انكلترا واجتهد في فتح باب المسألة في مجلس النواب واتفق انه لم يجد في [illegible] الذي كان يريد مقابلته فقدمه الى الصدر الاعلى وكتب حتى اقنعه وتوصل الى مساعدته ثم سافر الى [illegible] لانه يعلم ان للمحاكم الجديدة صفة دولية بالطبع [illegible] واقنع جماعة منهم ان تحول اللجنة [illegible] مقالات نشرتها التيمس والستاندرد والمورننج بوست [illegible] المشروع [illegible] من اليأس وكانت [illegible] النجاح [illegible] اللجنة الدولية بشرط الا تنفذ قرار اللجنة الفرنسوية [illegible] لا [illegible] الامتيازات

وفي الوقت عينه [illegible] محمد [illegible] الجمال لاخذ [illegible] الدولية [illegible] (في يوليو سنة [illegible] ودفع اليه [illegible] شخصياً من [illegible] وفي اليوم التالي [illegible] حكومة الاستانة [illegible] في اللجنة الدولية ولكن [illegible] الى الخديوي اسماعيل [illegible] من [illegible]

ان هذا المدفع من المدافع التي جربت في الفرس وتبين انه تحقق اختراق الدروع الفولاذية

سر اسماعيل بهذا الفوز وامر نوبار بالذهاب الى ايطاليا لاقناع الامة. ولكنه عرج في طريقه على مرسيليا واقام فيها اياماً حمل في اثنائها غرفتها التجارية على ان تكتب الحكومة مؤيدة مشروع مصر وكان يرجو بذلك ان يؤثر صوت جنوب فرنسا في افكار حكومة باريس

وبلغ نوبار فرنسا في الوقت الذي تلقى فيه خبر سقوط مكيدة دبرت لاغتيال حياة اسماعيل في الاسكندرية فأثار ذلك عطفاً على البلاد التي يحكمها وفي جو هذا العطف فتح باب المحادثة مع الكونت دارو رئيس الوزارة فاستمهله [illegible] ريثما يتم النظر في المشروع وبعد ذلك التقى نوبار في باريس وابلغه ان ايطاليا قبلت فكرة اللجنة الدولية

فاقترح حينئذ نوبار على اسماعيل ان يأذن له بالذهاب الى فينا. لكن اسماعيل منعه من ذلك لانه كان يفاوض سفراء النمسا وروسيا وبروسيا في الاستانة حيث كان مصطافاً فقبلت روسيا وعاد نوبار الى باريس ليستأنف المفاوضة. وفي الوقت عينه ارسل اسماعيل نجله الامير حسيناً ليتم علومه في باريس متظاهراً بايثار التربية الفرنسوية وكان ذلك منه عن دهاء حاسباً بذكائه ان هذا العمل ينشئ جواً ملائماً لغرضه. وهكذا كان واستميل الامبراطور والامبراطورة بواسطة الامبراطورة وبرز على المسرح ظهير جديد هو فردينند دي لسبس فكتب بايعاز الامبراطورة الى وزير خارجية فرنسا راجياً منه ان يحيل مسألة القضاء المختلط الجديد الى لجنة دولية في مصر واستحلفه بذلك المشروع العظيم (مشروع قناة السويس) الذي كان يوشك ان يفتتحه وبما لفرنسا من مصلحة في علاقاتها بالمصريين والاجانب

فآل تشديد البلاط الفرنسوي كل هذا التشديد الى استقالة المسيو دي موستيه

وزير الخارجية وكان معارضاً صعب المراس للمشروع وبلغ من سرور اسماعيل بذلك ان ابرق في الحال الى نوبار بان يوسط الحكومة الفرنسوية في توصية الحفار جكمار على صنع تمثال محمد علي مؤسس الاسرة العلوية لكي ينصبه في ميدان القناصل بالاسكندرية.

وسافر نوبار على جناح النعامة الى مصر ليتلقى اوامر مولاه ولما عاد الى باريس وسط سفيري انكلترا وايطاليا في التشديد على المسيو دي لاڤاليت وزير الخارجية الجديد وفي الوقت عينه طلب من دلسبس ان يحمل الامبراطورة على مواصلة اهتمامها بالمشروع وعلاوة على ذلك تمكن من الفوز بتأييد الامير نابوليون

وعلم نوبار في اثناء ذلك من الجنرال فلوري ياور الامبراطورة ان لها نفوذاً عظيماً على دي لاڤاليت وانه اذا رام الوصول الى نتيجة مرضية فعليه ان يلتمس مقابلتها ويبلغها ان اسماعيل امره ان يتأكد هل تريد جلالتها زيارة مصر لمناسبة افتتاح القنال لانه يريد ان يعد لها استقبالاً لائقاً بمقامها فابرق نوبار بذلك للقاهرة وجاءه امر اسماعيل بالموافقة فالتمس مقابلة الامبراطورة فاعربت عن سرورها بما اقترحه عليها

وفي نحو هذا الوقت وقعت في يد اسماعيل ورقة رابحة او سنحت له فرصة حسنة ذلك ان شركة قناة السويس طلبت منه — وكانت الحكومة الفرنسوية تؤيدها في الطلب — ان يمنحها اذناً ببيع صفقة كبيرة من الارض وكان لابد من هذا الاذن طبقاً لشروط الامتياز فرضي اسماعيل بشرط ان تنضم فرنسا الى اللجنة الدولية وفي ٢٦ ابريل سنة ١٨٦٩ اي بعد عشرين شهراً قضيت في الكد وبذل الحيل وقعت الحكومة الفرنسوية بقبولها

وعقد المؤتمر الدولي في القاهرة من ٢٦ اكتوبر سنة ١٨٦٩ الى ٥ يناير سنة ١٨٧٠ برئاسة نوبار باشا وكانت آراؤه برمتها في جانب المشروع فيما يختص

بالاختصاص المدني الذي يخول للمحاكم ولكنها ارجأت مسألة الاختصاص الجنائي وان كانت قد طلبته ابتداء

وجرت بعد ذلك مفاوضات اخرى بشأن الاختصاص الجنائي الا ان الحرب السبعينية بين فرنسا والمانيا قطعتها ولم تستأنف الا بعد سنتين وكان اسماعيل لا يزال شديد الرغبة في اتمام المشروع فكتب في ١٨ سبتمبر سنة ١٨٧٢ الى نوبار وكان لا يزال في القاهرة بانه وان كان لا يتخلى عن طلب الاختصاص الجنائي الذي من دونه لا تكون للمحاكم المدنية سلطة ما يؤثر المحافظة على الحالة الراهنة (الاستاتوكو)

وحينئذ سافر نوبار الى الاستانة وفيها تلقى التعليمات بان يفتح باب المفاوضة مع ممثلي الدول الاجنبية وكانت ابعاده البهالكي يهدئ ثائرة غضب الباب العالي الذي استاء من المفاوضة المباشرة بين مصر والدول فارسل احتجاجاً تهديدياً الى الخديوي

ووقفت فرنسا عقبة في الطريق للمرة الثالثة فانه بينما كان نوبار يبذل جهده في الوصول الى اتفاق في الاستانة كان اسماعيل يعرض على الحكومة الفرنسية رأيه الخاص بواسطة دي لسبس كما انه عرض هذا الرأي على ملك ايطاليا بكتاب وعلى الدول الاخرى بواسطة ممثليها في مصر واخيراً تم الاتفاق في اواخر سنة ١٨٧٢ على ان يكون الاختصاص الجنائي للمحاكم المختلطة مقتصراً على الجرائم التي يرتكبها مستخدمو المحاكم وموظفوها في اثناء قيامهم بواجباتهم الرسمية وجرائم الغش على المحاكم ومخالفات بعض لوائح البوليس

وعقدت في الاستانة من ١١ يناير الى ١٥ فبراير سنة ١٨٧٣ لجنة وضعت تفاصيل هذا الاختصاص الجنائي واقرت القوانين وبعد مناورات عديدة وحيل

من جانب الحكومة [illegible] القضاة [illegible] جدا وموعد تعيين القضاة [illegible] المحاكم في سنة [illegible]

* * *

وجميع الدول صاحبة الامتيازات ممثلة في هذه المحاكم وهي انكلترا وفرنسا وايطاليا وأميركا واليونان وبلجيكا والنرويج والبرتغال واسبانيا واسوج وهولندا والدنمرك [illegible] المانيا والنمسا [illegible] فقدتا حقهما بسبب الحرب وقسم [illegible] مناصب قضاتهما بين انكلترا وفرنسا وايطاليا

وتتألف كل دائرة من دوائر محكمة الاستئناف من [illegible] من المستشارين الاجانب واثنين من المستشارين المصريين وفي المحاكم الابتدائية من قاضيين اجنبيين وقاض مصري

[illegible] القضاة الذين تولوا منصب رئاسة محكمة الاستئناف حتى الآن أحد عشر [illegible] في تشكيل المحاكم في [illegible] الاصل [illegible] احدهما تولى هذا المنصب ١٢ سنة . [illegible] الرئيس الحالي

اما منصب النائب العمومي فقد كاد يصبح امريكيا [illegible] غير الامريكيين [illegible] يجب ان يكون لدولة صغرى

أهم القضايا التي حكمت فيها

وقد [illegible] من المحاكم المختلطة في أحيان كثيرة [illegible] على جانب من الاهمية [illegible] وكانت الحكومة المصرية احيانا [illegible] ومن القضايا التي كانت الحكومة [illegible] الحربية [illegible] وقضية شركة

هليوبوليس التي جاء الاستاذ مليران (رئيس جمهورية فرنسا السابق) والاستاذ بيكار الى مصر خصيصاً للمرافعة فيها . وقضية السودان التي نشأت عن تصريح صندوق الدين العمومي بدفع ٥٠٠٠٠٠ ج من الاحتياطي للحكومة لاجل فتح السودان . وكان بعض اعضاء الصندوق معارضين في ذلك فرفعوا الامر الى المحاكم المختلطة فحكمت على الحكومة المصرية برد المبلغ

— المقطم —

* * *

قرأ السري بن المغلس على مؤدبه «ونسوق المجرمين الى جهنم ورداً» فقال : يا استاذ ما الورد فقال لا أدري فقرأ «لا يملكون الشفاعة الا من اتخذ عند الرحمن عهداً» فقال يا استاذ ما العهد فقال : لا ادري فقطع السري القراءة وقال اذا كنت لا تدري لم تدرس الناس فضربه المؤدب فقال السري يا استاذ ألم يكفك الجهل والغرور حتى اضفت اليهما الظلم والاذى فاستحله المؤدب وتاب الى الله تعالى من التأديب واقبل على طلب العلم وكان يقول انه اعتقني من رق الجهل السري .